الكلام والتعليم

الأستاذ عبد الله ثكنون

اقتبست اللغة العربية في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، وما تزال تقتبس بطريق الترجمة عن اللغات الاخرى ، عبارات وصورا كلامية كثيرة اثرت محصولها من البيان وان كان ثريا من قبل ، ولكنها زادته ، ونوعت طرق الاداء فيها وقد كانت متنوعة بدونها ، الا انها توسعت نتيجة لذلك بكيفية ملحوظة . وهذا لان اللغة كائن حي يزيد وينمو بالغذاء والتطعيم ويضوى ويضمر بترك التعهد والعناية .

ففي العهد الجاهلي كانت العربية لغة مستكملة التكوين ، تفي بالتعبير عن مقاصد اهلها ومشاعرهم ، وهي الى كونها لغة مجتمع محدود الاغراض والمصالح، قد اضطرت الى الاقتباس من لغات اخرى مشتركة معها في الاصل او مختلفة ، فاخذت منها عديدا من الكلمات تسمى بالدخيل ، ولم يزر بها ذلك في شيء ، لا سيما وهي في حيويتها وفعاليتها قد صاغتها صياغة خاصة واضفت عليها من طابعها الاصيل ما جعلها تبدو كأنها من صميم الضاد .

وهذا في الالفاظ شيء معلوم لا جدال فيه ، واما في التركيب والتعبير فغير بعيد ان يكون العرب قد تأثروا بغيرهم في بعض الصور الكلامية مما كانوا يسمعونه في هذه اللغة او تلك ، بناء على عموم قاعدة الاخذ والعطاء ، ونحن نعلم ما لاحظه قدماء النقاد على عدي بن زيد العبادي واعشى قيس ومن ماثلهما في الاتصال بالعجم ، من ذكرهما لاشياء لا تعرفها العرب حتى ان بعضهم توقف في الاستشهاد بهما ، فهذا من ذلك . وهو تحفظ شبيه بتحفظ بعض لغويينا ازاء كل جديد في عصرنا هذا وقبله .

فلما جاء الاسلام وغمر العرب بعقيدته وتشريعه ونظريته الشاملة للمجتمع والحياة ، اتسعت دائرة اللغة العربية لفظا وتعبيرا ، وتعزز البيان العربي بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، واصبحت لغة العرب لغة دين ودولة ومجتمع متحول من حياة البداوة الى حياة المدنية التي جاءت بدعا في المدنيات لا تشبه غيرها بما لها من سمات خاصة ومثل متميزة ، فلا غرو ان يغني الاسلام هذه اللغة ويجعل دلالاتها ذات ابعاد تقصر عنها اللغات التي احتضنت الحضارة الانسانية قبلها ، فلا تملك الا ان تنقل عنها وتقتبس منها بعد ان اعتنق اهلها الدين الجديد . وكان ذلك مما حمل الاسلام لألفاظها من معان جديدة وما اتى به من تعابير لم تكن تعرفها من قبل .

وفي هذا الصدد يذكر علماؤنا عبارات وجملا مما اتى في القرآن ولم تنطق به العرب قبله كجملة سقط في أيديهم أو في السنة كعبارة حمي الوطيس .

ثم كان عهد الترجمة والنقل لعلوم الامم المتقدمة ومعارفها ، وما كان لذلك من تأثير في اللغة العربية سواء من حيث اقتباس المصطلحات العلمية او وضعها، ام من حيث مجاراة عبارات المؤلفين او ترجمتها ، كله معلوم للجميع فلا نطيل به .

ولا ريب ان ما جرى ويجري في عصرنا هذا هو من هذا القبيل ، فالاخذ والعطاء من سنن الحياة ، ولا غضاضة على العربية ان تتبنى الفاظا وعبارات بله الصور الكلامية التي يستحسنها الكتاب والمترجمون من لغات اخرى ، اذا كانت تنسجم مع الأسلوب

العربي ولو كان هناك ما يماثلها ، فقد وضعنا الهاتف ولكنا ما نزال نقول التلفون ، ووصف الدكتور لا نجد من يتنازل عنه ولو كان من اكثر الناس تحفظا فى هذا الصدد ، مع ان وصف الطبيب موجود فى العربية من قديم . وهكذا نرى ان ثروة اللغة وغناها من ذاتها وبالاقتباس ، شيء واقع ومرغوب فيه ، حتى ولو ادى الى خرق بعض القواعد المقررة كما نفعل هنا فى هذا المجمع أحيانا .

وما اعرضه على انظاركم اليوم هو تعبير من مئات التعابير التي دخلت العربية فى العصر الحديث وجرت على الاقلام والالسن ، فلم ينكرها احد ولا اعترض عليها معترض ، بل اعتبر ذلك من التجديد للغة والتوسع فى طرق البيان ، وحقا هو كذلك ، فقد اصبحت العربية بمقتضاه تساير ركب الحضارة الجديدة ولا تتخلف عنه فى شيء ، ولا سيما فى حقل الادب والفن والعلوم الانسانية والسياسة والاجتماع . ولكن هذا التعبير ما يزال توجه اليه النظرات الشزراء من رجال اللغة ، وينبذه المتحفظون وان كان مما شاع وذاع وملأ الأسماع كما نقول فيما حفظناه من الاسجاع.

انه التعبير الذي تدخل فيه هذه الكاف التي حبب الى ان أسميها الكاف التمثيلية ، فرقا بينها وبين كاف التشبيه ولانها تقع موقع مثل ، وهي المقابلة لـ comme الفرنسية و como الاسبانية فى مثل قولنا فلان كسفير يمثل بلاده احسن تمثيل ، والوالي كأحد رجال الشرطة يجب ان يحتفظ بهيبته .

ولمزيد الايضاح أبين كيف تقع هذه الكاف فى عنوان بحث كنت القيته فى هذا المجمع منذ سنتين وهو ابن رشد الفقيه .

فقد كتبت هذا البحث عن الحفيد ابن رشد ، واسمه محمد وكنيته ابو الوليد مثل اسم جده وكنيته تماما ، واشتهر هو بالفلسفة كما اشتهر جده بالفقه . واردت ان يكون عنوان البحث دالا من اول وهلة على المراد ، فقلت اجعله الحفيد ابن رشد الفقيه أو فقيها، فلم اجده يؤدي ما فى نفسي بوضوح مع طوله ، وقلت اجعله الفيلسوف ابن رشد الفقيه او فقيها ، فوجدته يقارب ولكنه ربما اوهم اني اتناوله بوصفيه الفقيه والفيلسوف فى حين اني لم اتكلم الا على الناحية الفقهية من ترجمته . وعرض لي استعمال هذه الكاف بان اقول ابن رشد الفيلسوف او الحفيد كفقيه ، فوجدتها ادل على المراد من كل ما سبق ، ولكن استعمالها مرغوب عنه ، لا سيما وانا اعرض بحثي فى مجمع اللغة العربية .

فعدت الى العنوان الذي خطر لي اول مرة ، هو ابن رشد الفقيه ، اتكالا على ان الشهرة المطبقة لهذا الاسم ، بين العرب وغيرهم ، انما هي للفيلسوف لا للفقيه . وقد ترجم ذلك البحث الى الاسبانية ونشر بمجلة الفكر التي يصدرها المعهد الاسباني للفلسفة فى العصر الوسيط بعنوان Averroes Elyurista وكان واضحا اشد الوضوح ان المراد به الحفيد لا الجد . على اني فى طالعة البحث بينت اني انما اعني صاحبنا الفيلسوف لا جده الفقيه .

لذا ولما قدمت من ان اقتباس التعابير اللغوية كاقتباس الالفاظ ، لا ضير فيه ، حتى لو كان هناك ما يماثلها ، فانه يعد كالمترادف ، والمترادف قلما يخلو من فرق دقيق بين معانيه ، وكذا الجمل والتراكيب ، اقول لما ذكر فكرت فى ان احاول تخريج هذه الكاف واوجه استعمالها على نحو مقبول فى العربية . فرجعت الى المعاني التي يذكرها علماؤنا للكاف ، فاذا هي اربعة عند ابن مالك ، كما قال فى الالفية :

شبه بكاف وبها التعليل قد
يعنى وزائدا لتوكيد ورد

واستعمل اسما .

وعند ابن هشام فى المغنى ستة بزيادة الاستعلاء والمبادرة .

وقد استبعدت منها هذين المعنيين الاخيرين لانهما لا ينطبقان على هذه الكاف التي نتكلم عليها . وكذلك معنى التشبيه لانه الذي يتطرق منه النقاد الى ضعف استعمال هذه الكاف فيه ، اذ كان المشبه فيها هو عين المشبه به (1) ، فان قول الشخص مثلا انا ككاتب لا اتحرج من استعمال هذا التعبير ، انما يعني نفسه . فاختل حينئذ احد اركان التشبيه ، وان كنت انا شخصيا لا ارى ذلك ضربة لازب ، فيجوز ان يعني غيره ، ويحسن ذلك قصد التواضع فى حالة التكلم كما فى مثالنا هذا .

---

(1) ولهذا سميتها الكاف التمثيلية فان التمثيل للقاعدة يكون بفرد من أفرادها فهو منها ، كقولنا الفاعل مرفوع مثاله قام زيد .

بقي معنى التعليل ، وقد مثلوا له بقوله تعالى : (فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) اى لهدايته لكم . وقيده قوم بكون الكاف مكفوفة بما ، ولكن ابن هشام رد ذلك واستدل بقولـــه تعالـــى : (وي كأنه لا يفلح الكافرون) اي اعجب لعدم فلاحهم. ولا اظن ان هذا المعنى يمتنع فى المثال الثانـــي من المثالين السابقين ، وهو قولنا الوالي كأحد رجـــال السلطة يجب ان يحتفظ بهيبته ، والتقدير لانـــه من رجال السلطة ، فما وافقه كان مثله كقولنا فلان كوزير لا ينبغي له ان يتعاطى التجارة .

ثم معنى الزيادة ، ومثل له النحاة بقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) التقدير ليس شيء مثله ، اذ لو لم تكن زائدة للزم اثبات المثل له تعالى . وانما زيـــدت لتوكيد النفي ، وهذا هو قول ابن مالك (وزائدا لتوكيد ورد) .

والمتكلمون لا يقولون بزيادة الكاف فى هـــذه الآية ، بل يعتبرونها اصلية ويجعلون الآية من بـــاب الكناية ، ويقولون انها ان دلت على نفي مثـــل المثـــل فذلك نفي للمثل ضرورة انتقاء الملزوم لانتقاء اللازم .

وكذلك المفسرون . قال ابو حيان فى البحر : تقول العرب : مثلك لا يفعل كذا ، يريدون به المخاطب ، كانهم اذا نفوا الوصف عن مثل الشخص كان نفيا عن الشخص . وهو من باب المبالغة . ومثل الآية قـــول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهيـــر
خلق يوازيه فى الفضائل

وقـــول الآخـــر :

وقتلى كمثل جذوع النخيل
تغشاهم مسبل منهمـــــر

وقال آخـــر :

سعد بن زيد اذا ابصرت فضلهـــم
ما ان كمثلهم فى الناس من احـــد

فجرت الآية على نهج كلام العرب من اطلاق المثل على نفس الشيء .

وقال الزمخشري فى الكشاف : قالو مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيـــه عن ذاتـــه ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكتابـــة ، لانهم اذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على اخص أوصافه فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذميم ،كان ابلغ من قولك انت لا تخفر . ومنه قولهم قد ايفعت لداته وبلغت اترابه يريدون ايفاعه وبلوغه . وفى حديث رقيقة بنت صيفى فى سقيا عبد المطلب نالا وفيهم الطيب الطاهر لداته والقصد الى طهارتـــه وطيبه . فاذا علم انه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله ليس كمثله شيء ، الا ما تعطيه الكناية من فائدتها . وكانهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد ، وهو نفي المماثلة عن ذاته . ونحوه قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) فان معناه بل هـــو جواد من غير تصوير يد ، ولا بسط لها ، لانها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئا آخر ، حتى انهـــم استعملوها فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فمن له مثل ومن لا مثل له . ولك ان تزعم ان كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررها من قال :

وصاليات ككما يؤثفين .

ومن قال : فأصبحت مثل كعصف مأكول .

وفى التلخيص للقزويني : ومما يرى تقديمـــه كاللازم لفظ مثل وغير فى نحو مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود الخ قال السعد فى شرحه : اذا استعملا يعني مثل وغير على سبيل الكناية بأن يراد بالمثل والغيـــر انسان آخر مماثل للمخاطب او غير مماثل ، بل المراد نفي البخل عنه على طريق الكناية ، لانه اذا نفى عمـــن كان على صفته من غير قصد الى مماثل لزم نفيه عنـــه واثبات الجود له بنفيه عن غيره .

فتلخص من هذا ان الكاف ، وهي للتشبيه ، قد يعني بها ما يعنـــي بمثل اي ذات الشخص والشخص نفســه ، فاذا قلنا فلان كسفير يمثل بلاده احسن تمثيل فالمراد فلان نفســه ، وانما عدلنا الى هذا التعبير قصد الكناية التي هي ابلغ من التصريح .

وقد تأكد بهذه النقول ما قدمتـــه من ان كاف التشبيه قد تدخل هنا ، لان المشبه به اعم من ان يراد به المشبه نفسه .

وخامس معاني الكاف ان تكون اسمية بمعنـــى مثل ، فتعرب حينئذ بما يقتضيه المقـــام نحو زيـــد كالاسد . قال فى المغنى : الكاف فى موضع رفـــع والاسد مخفوض بالاضافة . وكثيرا ما يقع هـــذا فى كتب المعربين . وعليه فاذا قلنا زيد كأديب له شهرة عالمية ، كان معناه زيد مثل اديب بنصب المثـــل على الحال ، ولعله ان يكون على ما تقدم ابلغ من قولنا زيد اديبا ، وقلت لعله ، لاني لا اجزم بهذا الحكم او لا آخذ بهذا النظر الذي شرحته حتى يحصل على موافقتكم :

وما انا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية ارشد